صبحي فحماوي

موسم الحصاد الحزين

قصص

دار الكرمل للنشر والتوزيع

مكتبة ديوان العرب يقدم لكم

موسم الحصاد الحزين

مجموعة قصصية

للكاتب الأردني صبحي فحماوي

أبو سلطان والقطة حسنية!

أبو سلطان جالس على حاله.. ينظر من حوله إلى الدنيا.. الشلل يحل مفاصل جسمه، ويزيل عنها قدرة الحركة.. ولكن جزءاً كبيراً من دماغه ما يزال يعمل.. لا يزال يفكر بعقل شبه سليم. وذهنه شارد يفكر بصمت.

اقتربت منه قطته حسنية.. نظر إليها بتمعن.. حاول أن يحدثها كأيام زمان.. ثم انسبت دمعتان سخيتان على خديه المغطيين بشعر كثيف أشيب، حاول أن يرفع يده ليمسحهما فلم يستطع، فانهالت دموع أخرى حزناً على محاولته الأخيرة.

والقطة حسنية بالنسبة ل(أبو سلطان)، قصة حياة متكاملة.. كان يقوم من النوم في الرابعة صباحاً، يتوضأ ويصلي وينزل من السلط مشياً على الأقدام إلى وادي شعيب، حيث يقبع دكانه الصغير إلى جانب الشارع الضيق، الذي يصل فلسطين بشرق الأردن، ومنها إلى الشام أو العراق أو بلاد الحجاز.. شريان رئيسي تمر منه الخيل والليل والدواب التي تتبع حركة أرجلها غبار كثيف، ونادراً ما تمر منه سيارة، وإن مرت فإنها تهز وادي شعيب والسفوح المواجهة، فيلتفت إليها كل أهالي السلط، ويتفرجون على شكلها الحديدي المتحرك العجيب، وما يتبعه من غبار، ويسمعون صوتها الآلي المدهش، حيث كانت السيارات فتحاً جديداً في عالم النقل والمواصلات.

يفتح دكانه في الصباح وهو يغني أغاني سيد درويش.

طلعت ياما أحلى نورها شمس الشموسة
يـــالله بينـــا نمـــلا ونحلـــب لـــبن الجاموســـة

كان يحب سيد درويش ويحفظ أشعار أبي القاسم الشابي – المغربي مثله- فيقرأ أية أبيات من قصائده:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فـــــلا بـــــد أن يـــــستجيب القـــــدر
ولا بـــد لليـــل أن ينجلـــي ... ولابـــــــد للقيـــــــد أن ينكـــــــسر
ومن لايحب صعود الجبال ... يعـــــش أبـــــد الـــــدهر بـــــين الحفـــــر

يتغنى بهذه الأشعار، بينما يمارس عمله اليومي في حذاء حصان أو حمار ، ومعالجة أمراض أظلاف الماعز والأبقار.. عدته سكاكين خاصة، وسندان ومنشار، وصبغة يود، وصبغة حمراء للجروح، وفونيك، وشربة دود لأمعاء الأغنام والحيوانات، وبابور كاز يغلي بواسطته بعض المواد ليصنع منها دواء، وحذوات، ومسامير خاصة للحوافر. وفي سقف الدكان يعلق سروجاً ولجامات، ومرابط لمختلف الحيوانات.. كلها "قطع غيار" للبيع..

يمر من أمام دكانه الناس على صهوات خيولهم، أو راكبين الحمير أو يرعون البقر أو الماعز أو الأغنام، فيطرحون السلام على البيطار- أبو سلطان- فهو معروف ومشهور، ليس في السلط وحدها، بل يعرفه معظم من يمرون بطريق وادي شعيب، سواء من أهالي السلط، أم من شراكسة عمان، أم من عرب

فلسطين. وكلهم يحتاجون البيطار أبوسلطان، وهو سعيد بهذه المعرفة، مزهو بعمله هذا، فلا يغلق باب دكانه آخر النهار- إلا وجيبه ممتلىء بالقروش.

يعود إلى البيت فأول من يستقبله من أهله هي قطته حسنية، التي ما أن تشاهده قادماً من بعيد ، حتى تقفز منطلقة نحوه ، فهي تعرف موعد عودته، وإذا تأخر فهي تنتظره بفارغ الصبر، وإذا حضر فهي تعرف أنه قد أحضر لها معه هدية قيمة، وهذه الهدية تكون مصدر سعادة حسنية، فإما أن تكون قطعة لحم، إذا كان صيد أبو سلطان سميناً في ذلك اليوم، وإما أن يرمي لها قطعة خبز وقطعة جبن، إذا كان عمله خفيفاً، فتأكلها، ولا ترفض هدية صاحبها، مهما علت أو تدنت شهيتها. كانت فقط ترفض أكل الشحوم.. وتدقق جيداً في أكل القطعة الحمراء فقط، ولا تأكل الدهون كي تبقى رشيقة القوام، قوية العضلات، تقفز وتنطنط في كل مكان. وعندما تقابل صاحبها، يكون اللقاء بالعناق، فهي تقفز إلى صدره، وتتسلق كتفيه، فتشعر بعطف وحنان ومحبة أبو سلطان، ولا تسأل عن الهدية، بل عن وجهه وصحته.. تشمه وتقبله في وجهه، وتفرك بأنفها شعره ، وتنتظر إلى أن يقدم لها هداياه، وتلحق به في الطريق تارة، وتارة أخرى يحتضنها بين ذراعيه، أو تقف على كتفه، بينما ينظر المارة والجيران إلى هذه الصداقة، ويضحكون مسرورين. حتى أن البعض كان يحسده على هذا الحب، ليس حبه لقطته، وحب قطته له، بل حظوته بحب الجميع! كل من يعرف هذا المغربي، البيطار الذائع الصيت، يحبه.

ولهذا كان أبو سلطان المغربي يشعر بسعادة غامرة بين أهل بلدته في السلط، بسبب حب جيرانه، وكافة الناس الذين يتعاملون به، أو حتى الذين يمرون إلى جواره في الطريق.

يصل إلى البيت، فيجد أم سلطان بانتظاره، وهي امرأة طويلة، ممشوقة القوام، بيضاء الوجه، زرقاء العين الواحدة، والأخرى مسدلة ستارتها في خبر كان ، شعرها الأشقر المشيب، مغطى بخرقة مقدسية بيضاء. تستقبل زوجها بالترحيب، والتهليل لقدومه.. يلتف حوله أبناؤه وبناته الصغار، يأخذون منه كيس الأغراض، وهم يعرفون أن هذا الكيس مملوء بالأشياء المطلوبة، اللحم والزبدة والجبن والفجل والملفوف ، وأحياناً بطيخة أو شمامة وبندورة ، وأحياناً الراحة والكنافة النابلسية،أوحذاءً، أو قطعة قماش كان قد أوصى عليها، فجلبها له أحد القادمين من نابلس.. أشياء كثيرة يكتشفونها في الكيس، وما هي إلا دقائق حتى يُرمى الكيس قطعة قماش خاوية على الأرض، والأطفال يرتعون بما قُسم لهم من معطيات أبيهم البيطار، بينما أم سلطان جالسة أمام زوجها تحدثه ويحدثها، فيضحكان، وأحياناً يتصايحان، ثم يعودان للحديث من جديد.

كل يوم يحكي لها قصصاً جديدة، مما يسمعها من الناس، أو الزبائن الذين يزورون دكانه، وهي تحدثه عما حصل في ذلك اليوم في السلط بين الأهالي، ومشاكل الزواج والطلاق، وتفاصيل الطوشة التي حصلت اليوم في الحارة، والدّموس التي قذفت من جرائها على سقف دكان أبو مرشد. وإلى غير ذلك من القلاقل التي لا تنتهي.

تخلع عنه ملابس العمل المسودة المتربة، وتلبسه جلبابه الأبيض الروزا، المقلم الفضفاض ليرتاح، ثم تحضر له العشاء الذي كان يعتبر وجبته الرئيسة، فيتعشى، ثم يتوضأ ويصلي المغرب والعشاء جمعاً، ثم ينام ، فيشخر طوال الليل، حتى يرتاح، وتبرد سخونة رأسه، ويستعد لعمل صباح الغد الباكر.

وفي أيام الجمعة لم يكن يذهب إلى العمل، بل يذهب من الصباح الباكر إلى اللحام، فيشتري رأس عجل، أو كرشاً وأرجل خراف، ويعود بها إلى أم سلطان، فتنظفها هي وبناتها دون مساعدة الجارات، كي يحافظن على زخم اللحم بعد نضوجه! يستحم أبو اسحق ويحلق ذقنه، ويلبس قمبازه الروزا، وسروالــه الأبيض، وجرابات الحرير، وحذاءه الجلدي.. وهذه الملابس كلها مخصصة لأيام الجمعة والأعياد الرسمية. يتعطر المغربي الأسمر، ويحمل عصاه، التي احضرها معه من الشام، عندما ذهب لزيارة المسجد الأموي في دمشق، ويتجه إلى المسجد للصلاة. ينادي في طريقه على جيرانه(أبو محمد وأبو عليان) فتسمع أصواتهم يتصايحون، ويتمازحون، وهم يسيرون باتجاه مزارع تين قاع السلط، فيصلون المسجد وهم يتحدثون في أمور السلط، وعن مقاومة بعض أهالي السلط للإنجليز، وكيف أن سعيد العلي ترك السلط، والتحق مع ثوار فلسطين ، لمقاومة الإنجليز واليهود في يافا واللد، ويستغربون تصرفات الانتداب الإنجليزي على فلسطين ، الذي أصبح يمنح أراضي الدولة "الميري" لليهود، ليقيموا عليها مستعمراتهم، وأن هذه الاستملاكات أصبحت تخلق صراعاً بين العرب الفلسطينيين واليهود المهاجرين من أوروبا..

ولم يكن سعيد العلي هو الوحيد من السلط الذي ذهب ليقاتل اليهود والإنجليز، بل تبعه كثير من الشباب.. وفي كل يوم جمعة كانت أحاديث جديدة حول معارك بين الثوار العرب في فلسطين، والمستعمرين الجدد. لم تكن الأحاديث مقتصرة على فلسطين والثوار، بل كانت تتشعب لتدخل أزقة السلط وحواريها، في استغابة (أبو خضر) الذي قال لزوجته أم خضر: "والله يا مَرَة إني تاجرت بكل شيء، وكسبت فيه، إلا تجارتي فيك، فهي الوحيدة التي كانت خاسرة!" يضحكون ويستبشرون بموسم زراعي جيد، وحديث عن أمراض الحيوانات، وقصص كثيرة لا حصر لها.

يعودون إلى السوق، فيشترون الملابس والأغراض اللازمة للبيت، مرآة، أو صابون نابلسي، أو حصيرة، أو جرّة، أو أي مستلزمات بيتية أخرى ، ويعود أبو سلطان إلى البيت، وقد جلب معه فقيراً من المعروفين في البلدة بضيق ذات اليد،أو غريباً تائهاً في البلد ، تشد على عنقه الفاقة والفقر، يدعوه لتناول طعام الغداء جماعة، مع أولاده وبناته وعدد من الجيران والجارات أيضاً.. كلهم يجتمعون على الزاد المدلوق في وعاء كبير، يجلسون في دائرة حوله، ويقولون بسم الله.

في تلك اللحظات تكون القطة حسنية قد أكلت حصتها من اللحوم النيئة، وبدأت تنظف فمها بلسانها ويديها ، حتى لا تُنجس أبو سلطان، الذي بعد أن ينتهي الغداء، ويذهب كل حي إلى سبيله، يعود لمداعبة حسنية، فيباطحها ويرفعها عالياً، ثم ينزلها ويعضها من أذنيها، وهي تموء دون غضب، لأنها تعرف أنه يداعبها، وهي سعيدة بهذه المداعبة والعضعضات.. يتركها ويذهب لينام بعد الظهر، فتلحقه وتنام إلى جواره. تتبعه كظله أينما ذهب، حتى أنه أحياناً لا يراها فيدوس على طرف ذيلها فتموء متألمة، فيتألم أبو سلطان معها، ويرفعها بين يديه ويتأسف لها ، فتقبل أسفه، وينتهي كل شيء.

والمغربي أبو سلطان يؤمن بمقولة (اصرف ما في الجيب، يأتي ما في الغيب) يعود إلى البيت في نهاية النهار، وجيبه مملوءة بالقروش فلا يصبح الصباح ومعه شيء، إلا ما تجمعه أم سلطان من توفير بعض ما تبقى، لتدفع منه أجرة الدار. وفي المناسبات ، تشتري لها سواراً من الذهب ، أو حلق أذنين لإحدى بناتها، تنفعها عند الحاجة، وأما معظم القروش فتذهب إلى بطونهم وأجسادهم، بشراء المأكولات والملبوسات.

وأحياناً كان يسافر إلى القدس هو وأم سلطان، كما كان يفعل أجداده المغاربة، (يأتون من المغرب إلى القدس ليقدسوا، فيعودون ، ومنهم من يبقى في الديار المقدسة، ولا يعود إلى وطنه الأصلي) وكان جده واحداً من الذين لم يعودوا إلى المغرب، بل استقر إلى جوار المسجد الأقصى في حي سموه حي المغاربة.. وبالصدفة، اشتغل أحد أبناءه في أريحا في حذاء الخيول وطب الحيوانات، وكان الحفيد حسن، هو الذي سمي فيما بعد ب(أبو سلطان) ، وورث عن أبيه صنعة البيطار، وتزوج من الشقراء فاطمة، ذات "العين الكريمة"، وهي ابنة أحد أصحاب المواشي والأغنام في السلط، وانتقل ليعيش معها هنا، فأصبحت فاطمة هي أم سلطان.

لكن الزمان لا يبقي أحداً على حاله. كبر أبو سلطان بسرعة، بعدما جاءه ولدان وست بنات، وثقلت موازينه وازدادت همومه ومصاريف بيته. في الوقت الذي شحت فيه الموارد، فالخيول والحيوانات أصبحت تتناقص بشكل موحش، وفي نفس الوقت أصبحت حركة السيارات كثيفة في طريق وادي شعيب ومدينة السلط، ولم يعد عمل بيطار في طريق وادي شعيب يطعم عائلة كبيرة، وأصبحت القروش التي قد تأتي ولا تأتي، لا تكفي لشراء المأكولات لهذه العائلة.

فكر في عمل جديد يعيد له سابق مجده، وقال: "السيارات أصبحت تحل محل الحمير والخيل، بشكل فعلي، فماذا لو حولت دكاني لتصليح السيارات.. ميكانيكي سيارات؟ ولكنه نظر إلى عمره وصحته، وقال: "لم يبق من العمر قدر ما مضى، والأهم من هذا كله أنني أحب خدمة الحيوانات، فأركّب حذوة الحصان أو الحمار بحنان، وأداوي الأبقار والأغنام بعطف شديد عليها، وهذا سر نجاحي. ولكنني مع الحديد لن أكون حنوناً، ولا أحب حتى رائحة دخان السيارات وشحومها، التي تلوث جسم وملابس وحتى صحة الميكانيكي."

بدأ العد التنازلي في حياة أبو سلطان ، فبدأ يشعر بذلك. ولهذا بدأ يتنازل عن شراء جوارب الحرير، وبدلات الصوف والأحذية الجلدية، صار يسترخص عند شراءه لملابسه وحتى ملابس زوجته وأولاده. "ما لها ملابس البالة؟" وحتى في مأكولاته تنازل عن الكنافة وباقي الحلويات، وعن اللحوم الحمراء، وأصبح لا يشتري من اللحم إلا السقط! حيث تقع ذبيحة صدفة، فيتسلل اللحم الأحمر إلى مطبخ أم سلطان .

وبالرغم من شعور القطة حسنية بأنها لم تعد تجد شيئاً من طعامها المعهود في جعبة أبو سلطان، وبالرغم من شيخوختها وهرمها، فلقد استمرت في الذهاب لملاقاته وهو عائد من الشغل.

وفي ذلك اليوم الحالك السواد في عيني أبو سلطان.إذ لم يكن هناك أي عمل يستطيع انجازه. فعاد فيه خاوي الجيوب، (بلا سلطان) ولم يقبض قرشاً واحداً من عمله، ولا من ديونه على الناس، أو حتى عربوناً على مبيع أي شيء! عاد كالقائد المنكسر من ساحة الحرب،لا والله ، فقادتنا المنكسرون في ساحة الحرب هذه الأيام ، يعودون رافعين رؤوسهم ، وكأنما يقول أحدهم: ولا يهمني! وأما أبو سلطان فلقد كان يحمل بين جناحيه الجوع والفاقة والفقر، ليقدمه إلى أم سلطان ، ستطبخ الحجارة بعد اليوم! ترى كيف سيعود إلى البيت؟ وماذا سيقول لأم سلطان ؟ وكيف سيطعم أولاده بعد اليوم؟ هل يطلب المساعدة من الجيران؟ وقد كان يوزع الطعام على الكثيرين من الكبار. الجوع مر.. مر.. أمر من العلقم! وبينما هو يكلم نفسه بهذه العبارات المؤلمة، وصلت حسنية مسرعة لاستقباله كالعادة- وقفزت بتثاقل إلى صدره، لأنها أصبحت هرمة هي أيضاً، وعمرها لا يساعدها على القفز إلى كتفه، دون مساعدته!

توقعت منه أن يحتضنها بين ذراعيه، فما كان منه إلا أن خلع حزامه الجلدي، وهات يا ضرب! ضربها ضرباً مبرحاً! لم تهرب حسنية من أمامه، بل انكمشت وتقوقعت وحاولت إخفاء رأسها بين يديها.. لم يتابع ضربه لها بل توقف! تركها ومضى، وهو يتألم أكثر من ألمها..وكأنه قد ضرب رأسه بحائط!

واستمر يحدث نفسه: " ترى لماذا ضربتك يا حسنية؟ ألم يكف أنني لم أحضر لك شيئاً تأكلينه؟ ألم يكف انك منحتني حبك على الجوع، فقابلتك بالضرب! لا ليس إلى هذا الحد. الوضع أصبح لا يطاق. يبدو أنني لم أعد بصحة سليمة، الزمان أصبح أقوى مني، وهو يتحول عني، الزمان يتجهم في وجهي، ويبتسم للآخرين، للجيل الجديد، جيل السيارات وخدمة آلات الحديد.

الزمان قد تغير، وأنا لم أعد أستطيع مجارات التغير. فالمرحلة طاقة، والإنسان طاقة، وأنا طاقتي قاربت على الانتهاء."

ومنذ ذلك اليوم تغيرت ملامح الرجل.. لم يعد يذهب إلى دكان البيطرة إلا لتشطيب أعماله.. أو لتذكر أطلال المحل! لم يعد ليعمل، بل ليتذكر حركة المارة على صهوات خيولهم أيام زمان.

لم تقطع حسنية علاقتها مع (أبو سلطان) ، فهذه عشرة عمر لا تنتهي بضربة في ظروف ليست غامضة، حتى على حسنية نفسها، فهي عرفت بالتدريج ماذا يحدث مع صاحبها وكيف أن الفقر أصبح يزحف تدريجياً على بيتها.. وليس الفقر وحده، بل كبر السن أصبح يؤثر عليها وعلى صاحبها معاً.. لم تعد تذهب لاستقباله إذا عاد من الدكان، بل استمرت في الجلوس إلى جواره تنظر إليه، تتأمله وتفكر معه في قضية البيت، حتى الأولاد لم يعودوا يفرحون بوالدهم كالعادة، وفي نفس الوقت ازدادت حسرة أم سلطان ومشاكلها مع أولادها بسبب ضيق الحال، فأخذت تبيع من أساورها الذهبية، وتحاول أن تسد رمق حياتهم، لتزودهم بما يبقي على الحياة، ويدفع عنها العدم.

أفاق أبو سلطان على الشلل يأكل نصف جسده ! لم تبق منه إلا بقية من حياة، يستطيع من خلالها رؤية الناس، ولكن من منظار محطم. سأل نفسه دون أن تتحرك شفتاه: "ترى لماذا تبدأ الحياة؛ طفولة جميلة، وتنتهي بالشيخوخة المرعبة البشعة؟ لماذا لا يحصل العكس؟ فتبدأ الحياة صعبة شاقة، ثم تتحسن وتزهو، وتستمر السعادة حتى الموت!" نظر إلى حاله، وقال لنفسه: "هل أستطيع مشاهدة القدس قبل أن أموت؟" نظر إلى جواره فشاهد قطته حسنية قد فارقت الحياة ونامت نومتها الأخيرة.

حاول أن يمد يده نحوها ليفعل شيئاً من أجلها فلم يستطيع أن يحرك يده المشلولة.. انهمرت من عينيه دموع غزيرة.. لم يكن إلى جواره أحد.

حتى أم سلطان كانت مشغولة عنه في تدبير أمور أولادها، وتسيير حياتهم، لتخلق منهم جيلاً جديداً، يستطيع مجاراة الزمن، ومواجهة تحدياته بقوة.

العابرون

أغلق الضابط سوميخ باب كوخه العسكري، واضطجع على سرير الدورية، ثم نظر إلى رسالة كانت بيده وهو داخل، وتنهد ساخطاً ! كانت تدور في مخيلته أفكار كثيرة.إذ قال لنفسه :

"ها هو ابن خالتي دانيال، يعيش في سان فرانسيسكو بحرية وسعادة، وأرباح مجزية، وأنا قابع في مدينة نابلس اللّعينة! أشعر وأنا أمشي في شوارعها القديمة المسقوفة المعتمة، بشيء من الرهبة، والحقد والكراهية والخوف، أشعر بالتعب والإرهاق. أنظر من طاقات سقوف شوارعها، حيث تطل أعشاب ميتة، وضوء خافت على أعشاش عصافير، أو جحور فئران، أو أفاعي، وأحياناً تسقط منها حجارة، يرميها أطفال المدينة علينا، وحتى الضباط أمثالي، لا يسلمون من الأذى. أشعر بالخوف، بالرغم من كوني مدججاً بالسلاح! أهل المدينة يخافوننا، ونحن نسير في شوارعها، نحمل على ظهورنا بقجاً من الأمتعة، والقنابل والأسلحة المتطورة الخفيفة، سريعة الحركة والإطلاق، ولا يعرف أهالي المدينة، أننا نحن الذين نخاف منهم، ولهذا لا نستطيع السير في مدينتهم، أو في مخيم بلاطة، الذي هو جحيم بحد ذاته، دون هذه التشكيلة المطواعة من الأسلحة الإسرأمريكية الفتاكة!

وأهل المدينة ليسو بالسهولة والبساطة التي يبدون فيها، إنهم حقودون لؤماء معنا، يبتسمون في وجوهنا، ويمرّون، وما هي إلاّ دقائق، حتى تنهال علينا من صبيانهم وبناتهم حجارة، لا أعرف من أين تأتي! أركض! أنظر هنا وهناك! أدور على محوري! أطلق النار عليهم ؛ كل حجر برصاصة!

الأوامر تأتينا اليوم (الحجر برصاصة) ألاحقهم! يختفون بين الأزقّة! فلا أرى منهم أحداً، وبعد ثوان معدودات، يعودون إلينا من خلف زوايا الشوارع! يلاعبوننا لعبة القط والفار! يبدو أن التلفاز قد أثّر فيهم، وأن (ميكي ماوس) قد خرّب أخلاقهم ! هذا أذا كان عند العرب أخلاق من الأصل!

أشعر أنني أوروبي يركض في صحراء عربية، يطارد السراب! أبحث عن ماء يروي ظمأي! وأنا ظاميء للاستقرار، مهمتي شاقة! يقولون لنا : "مهمتكم تبديد سكان فلسطين، وتجريف آثارهم وبيوتهم وطرقاتهم ، وأشجار زيتونهم ، وحتى آبار مياههم ومغائرهم التي نَشأوا فيها منذ ما قبل أجدادهم الكنعانيين. وإذا بقيت من آثار الكنعانيين مِزَق، فلنعتبرها من آثار بني إسرائيل . ومن ثم نخلق كياننا الآمن مكانهم، في فم الصحاري العربية! وبعد ذلك تنتشرون إلى الشرق والغرب!"

إلى أي مدى؟

وإلى أي حدود؟

نحن لا نعرف !

يتراكض حولي مجندون إسرائيليون يحمون تحركاتي، بصفتي ضابط فرقة مقاومة "الإرهاب" في المدينة، ولكن كلاً منا يشعر في قرارة نفسه أن إرهابهم ليس سوى مقاومة احتلالنا لبلادهم! وأنه عاجز حتى عن حماية نفسه، قبل أن يحمي قائده الميداني.

وأنا اليهودي بشر، كسائر بني البشر! بالرغم من ممارساتي اليومية للقتل! ذلك لأنني محاصر بين المطرقة والسندان! يضطر لتحقيق مهمته! صرت أمارس القتل أحياناً، فقط كي أبقى في موقعي!

فجأة وجدت نفسي أنا وأبي إسرا، وأمي ماريا، وأختي مادلين، في مطار اللّد ؛ مهاجرين من فينا. كان أبي إسرا أشهر صائغ مجوهرات في فيينا، له دكان شهير مقابل الكاتدرائية القديمة، ذات القبة الهرمية الشامخة في وسط المدينة. وكان هناك سوق من الدكاكين، التي تبيع مختلف الأشياء.

كنا نركب الدرّاجات الهوائية أنا وأصحابي، ونطلق بها من حارتنا القريبة من حديقة البلدية، إلى دكان والدي، فأوقف دراجتي أمام الدكان، ثم أدخله متمايزاً عن أصحابي، الذين كانوا ينتظرونني في ساحة الكنيسة، يعطيني أبي مصروفي بلا محاورة، لأنه في غالب الأحيان يكون مشغولاً مع الزبائن، خاصة النساء الجميلات منهن!

يا ويلي! - يقول سوميخ ذلك ضاحكاً - فأبي كان ينسى كل شيء أمام الجميلات، وإذا ضبطَته أمي وهو ذائب في حضرة إحداهن، وأظهرت غضبها من رعونته، فإنه يقول لها :

- كل هذه المداعبة، كي أبيعها كمية أكبر، وبسعر أغلى، أيتها المرأة قاطعة الرزق! فتصمت أمي، أمام إغراء الذهب والنقود! وكأنها تقول له :

"أفعل ما بدا لك، ما دمت تزيد ثروتنا بهذا البغاء!"

تأثرت بأبي، ولكن أين هن النساء اللواتي أنام معهن، فيدفعن لي تلك النقود التي كان أبي يتلقاها بعد كل مغازلة !

كنا نذهب أنا وأصحابي إلى بائعة (بوظة قوس قزح)، الواقفة أمام عربتها في الساحة ؛ فيختار كل واحد منا لوناً ؛ لي بوظة شوكولاتة ، ودافي يحب بوظة الفراولة، وأما الحليب الأبيض، فكانت محبوبة أرليخ! لم نكن نحب البوظة ليمون أصفر، وكان جابي يطلب (بلو بري)، ثم نركب درّاجاتنا الهوائية، ونتابع باتجاه نهر الدانوب، ومن الشارع الرئيس، إلى جوار الجسر، ننزل الدرجات المؤدية إلى رصيف النهر المنخفض عن مستوى الشارع العام، حيث نتلاعب بدراجاتنا على الرصيف الطويل، الممتد بطول النهر، وأحياناً ندخل مطعماً، صُمِّم داخل سفينة راسية إلى جوار حافة النهر،حيث نشرب الماء، أو نتبول في المراحيض، ونسمع موسيقى بيتهوفن وشوبرت وباخ، ونتفرج على روّاد المطعم، وهم يرقصون مع صويحباتهم! ونراقب قبلات العشاق منهم، لنتعلم كيف نقلّد طريقتهم في الممارسة! وعندما يدركنا النادل، ويدعونا للجلوس كي نشرب وندفع الثمن، كنا نخرج مسرعين كي لا ندفع! شقاوة عيال! وكانت الأعياد تأتي، فنذهب أنا وأبي وأمي وأختي مادلين، لزيارة أقاربنا وأصدقاء العائلة، ثم نتركهم ونذهب نحن الطفلين؛ أنا ومادلين إلى مدينة الملاهي، حيث الألعاب الساحرة هناك. كنا في فيينا نعيش سعادة غامرة، ولا أدري كيف انقلبت حياتنا رأساً على عقب! ولماذا رحل بنا أبي إلى هذه الأراضي المخيفة!

لا أزال أذكر يوم ركبنا الطائرة من مطار فيينا، شاهدت النساء اليهوديات المتجمعات أمام سلّم الطائرة، وهنّ يبكين دموع الوداع! وخلال طيرانها في الجو، كان الوجوم مخيماً على الجميع، فقام رجل من بين الركاب، وأخذ يقوم بحركات بهلوانية، لإضحاك الركاب، قالوا إنه من الوكالة اليهودية، ولكن أحداً لم يضحك على حركاته، أو يجامله بتصفيق أو تشجيع. لم أعرف يومها إذا ما كنا في رحلة مدرسية، أو في نزهة! كانت أول مرة أركب فيها طائرة. رحت

أتفرج على الركاب. كانت هناك نساء يبكين، ورجال عابسون، والرحلة حزينة! لم يهمني الأمر وقتها، ذلك لأنني كنت أعتقد أنها سحابة صيف وتنقضي! وبعد طول انتظار في مطار قالوا إن اسمه مطار اللّد، جاءت شاحنة مشدّرة، ونقلتنا إلى منطقة جبلية، قالوا إن اسمها جبال الكرمل، حيث أنزلونا في بيت مهجور في مدينة عربية، قالوا إن اسمها حيفا، وقالوا إن صاحب البيت هرب إلى بلاد العرب! وبعد سنة اكتشفنا أن صاحب البيت قد مات مقتولاً من قبل قوات الهاجاناة عام 1948، أمروه أن يهرب، فرفض الرجل، وأصرّ على البقاء في بيته. أبلغتنا جارتنا المسيحية أن الفلسطيني قال لهم :

"تفضلوا اشربوا الشاي وارتاحوا." فقالوا له :

"اطلع من البيت." قال لهم :

"إنّا ههنا قاعدون!"

قاموا طخوه! الرجل مات، ودمه ساح داخل البيت! وعندما عرفت أمي أن البيت فيه روح واحد عربي مسلم، مقتول في البيت، لم يبق في رأسها عقل! جنت! وصارت أعصابها تعبانة ! لم أكن أفهم يومها أن نزولنا في حيفا هو مستقر نهائي. كانت منطقة وعرة المسالك، ولكنها مطلّة على الدنيا كلها! كنت أشعر فيها بالخوف والغربة! وفي يوم سمعت والدتي تقول مزمجرة بوجه أبي:

" أهذه هي الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، والتي وافقت على هجرتنا إليها؟ لم أشاهد فيها غير الدم والدموع! أنا لا أستطيع أن أعيش في بيت فيه أرواح عرب فلسطينيين مقتولين! صرت أشعر أنهم يشاركوننا القعدة، يشاركوننا في سرير غرفة النوم، صرت أخاف أن أروح إلى الحمّام، وأخلع سروالي هناك ! أخاف أن تكون روح عربي تستخدم المرحاض! فأقعد عليها! أو أن فلسطينياً يتفرج عليّ، أو يراقبني داخل الحمّام! صرت أخاف أن تهاجمني أرواح الميتين وأنا أغلق الحمام عليَّ وحدي! أنا سأجنّ! لا أعرف كيف خدعك رجال الوكالة اليهودية بهذه السرعة! كنت تلعب بالذهب والمجوهرات في فيينا!"

كانت تهاجمه مستشرسة وتتابع صراخها في وجهه:

" ترى هل ستفتح دكان مجوهرات في حيفا، وتبيع الذهب للّذين قتلتموهم، أم للوحوش الضارية، التي لم تتركوها حتى هي تعيش بين غابات جبال الكرمل؟ اليهود من أبناء جلدتك لا تنطلي عليهم ألاعيبك في صناعة المجوهرات، وحتى لو انطلت فإنهم لا يدفعون! ماذا قالوا لك عندما ذهبت إلى شركات صناعة المجوهرات في تل أبيب! قالوا لك اذهب والعب بره يا عجوز! هل كنت تعتقد أن أولئك الحيتان سيعيّنونك خبيراً لمصانع المجوهرات هناك! قالوا لك:

- رح اشتغل حارس غابات، وعش في تلك الجبال، التي تتعوذ من الشيطان الرجيم، لتجمع لنا لقمة العيش التي نتسمم بها!"

كان أبي صامتاً وهو يستمع إلى عبارات توبيخها! أول مرّة أشاهد أبي فيها يصمت صمت القبور! لم ينبس ببنت شفة! لم يطُل الأمر بوالدي، فالحزن والهمّ غيراه تماماً، وظهرت عليه سريعاً علامات الهرم، وتضاءل حجمه، ثم توفي، ودفنوه في المقبرة اليهودية للمدينة!

وأثناء حرب 1967، توفيت والدتي خوفاً عليّ، وعلى أختي مادلين، كانت ترتجف هكذا دون مؤثر مباشر عليها! فكان الانتصار في ذهني كابوساً مخيفاً! وفي حرب تشرين 1973، قطعت ساق أختي مادلين، التي كانت

مجنّدة في خط بارليف، على أثر لغم كنا قد زرعناه لاصطياد المصريين المهاجمين، فاصطاد اللّغم رجل أختي، فصارت تسير برجل واحدة وعكاز، فصاروا يسمونها "مادلين العرجاء!" ولكنهم مؤخراً ركّبوا لها رجلاً أصطناعية.

وأثناء انتصاراتنا في لبنان عام اثنين وثمانين، قتل ابن عمي عزرا، وبقيت أنا حتى الآن، بكامل قواي العقلية والجسدية، أجوب شوارع نابلس القديمة، بدعوى مواجهة الإرهاب، وأنا أشاهد بالتلفاز فلول جيشنا المهزوم من الأراضي اللّبنانية، التي انتشينا باحتلالها، ثم اندحرنا منها مهزومين، أشرّ هزيمة!

الحمد لله أنني لم أكن هناك، فلو كنت، فلا أعلم إذا ما بقيت على قيد الحياة، أم لحقت بأبي رحمه الله، على دراجة هوائية تقطع جبال الكرمل، ثم تصل إلى رأس الناقورة، فتسير على سطح البحر الأبيض المتوسط، وتتسلق أثينا متجهة إلى جبال الألب، فأتزلج بدراجتي الهوائية على جليدها، ثم تهبط بي في ربوع فيينا الجميلة! ولكن هل معقول أن أقطع الوديان والجبال والبحور، ولا تنفِس عجلات دراجتي الهوائية! أكيد أنني سأواجه المشاكل الانزلاقية فوق ثلوج جبال الألب الساحرة، التي تشبه البوظة الحليب، التي كان يحبها الملعون أرليخ !

يبدو أنني بدأت أفقد صوابي! هؤلاء الفلسطينيون الأوغاد، أراهم الآن أمامي، ينامون في نابلس مطمئنين إلى مستقبلهم، وأنا أحرس وأقاتل الأشباح في لياليهم الرهيبة! قواعد لغتهم العربية تقول بهدوء: (فعل ، يفعل، افعل) وقواعد لعبتنا تقول: (قتل، يقتل، اقتل). ففي كل يوم أو ليلة، يموت عشرة فلسطينيين ومجند إسرائيلي. ويتوالد مئات من الفلسطينيين الجدد! ونحن نبذل أقصى جهودنا لاستدراج يهودي واحد من أي بقعة من بقاع العالم، حتى لو كان من زنوج أفريقيا السوداء، لنزيد عددنا واحداً. وأنا لا أزال أسير داخل جحيم شوارع نابلس، وصفائح مخيم بلاطة الملتهب!

ابن خالتي دانيال هاجر قبل عشر سنوات من تل أبيب إلى أمريكا، وأنشأ هناك في سان فرانسيسكو محلاً تجارياً للأجهزة الالكترونية، وها هو الآن أحد كبار التجار هناك! يدعوني في رسالته للهجرة إلى أمريكا، ويقول لي:" إن حياة اليهود الأذكياء يا سوميخ، لن تنتعش، إلاّ في وسط رأس المال الأمريكي! ولا داعي لأن نقضي حياتنا، في الصحاري العربية،(إما قاتل أو مقتول) كما يقول مغنّ عندهم إسمه فهد بلان!"

فعلاً أنا كنت أسمع هذه الأغنية! ترى هل أستمر في سيري إلى حتفي، وأنا أحمل هذه الأمتعة على ظهري، وأحرس احتلالنا لما تبقى من فلسطين، أم أتصل بدانيال، ليساعدني على الهجرة؟ غداً سأجرّب حظي، سأتصل بدانيال، فقد أتحوّل من (أما قاتل أو مقتول) إلى تاجر مهول! لقد كرهت حياة التعذيب والقتل هذه، واقتنعت أننا لسنا سوى عابرين في هذه البلاد.

ومن الخارج طرق أحدهم باب كوخه، فارتبك وحمل مسدسه وتهيأ! ثم قام وفتح الباب، فإذا به أحد المجندين!

(مجلة الموقف الأدبي8- 2004)

سأحتفل بعيد ميلادي !

في كل مرة اشتري الجريدة، تتلقفها زوجتي، وتفتحها بسرعة على صفحة الأبراج، لتطّلع على حظها، ثم تسألني: "من أي برج أنت؟" فأجيبها:" بصراحة، أنا مولود في موسم حصاد العدس." تضحك زوجتي، وتتمتم بكلام غير مفهوم، وحتى لوكان.. فهو غير مهم بالنسبة لي، وأنا اتناسى الموضوع، وأتابع اهتمامي بما يهمني... صديقي محمود مولود في التاسع والعشرين من شهر شباط ، ولهذا فهو يحتفل بعيد ميلاده، مرة كل أربع سنوات، وأما أنا فالأمر مختلف جداً بالنسبة لي. وكثيراً ما يحتفل أولادي بأعياد ميلادهم، فتعود زوجتي لتسألني:" ألا تريد أن نحتفل بعيد ميلادك؟" فأجيبها لا مبالياً :" عندما يأتي موسم العدس، احتفلي بعيد ميلادي.. معك موسم كامل لتحتفلي خلاله."

صحيح أنني لا أفكر بالاحتفال بعيد ميلادي، ولكنني لا أخفي عليك أن عدم معرفتي تاريخ ميلادي، ينغّص علي حياتي، ويحزنني في كل مناسبة، أرى فيها أحداً يحتفل بعيد ميلاده.وفي إحدى حفلات عيد ميلاد أحد أولادي، سألتني زوجتي وبإصرار لم يسبق له مثيل:" ترى ما هو سر الغموض في عدم وجود تاريخ ميلاد محدد وواضح لك، بالرغم من أنه مكتوب في جواز سفرك تاريخ ميلاد؟ أليس هذا التاريخ المكتوب في جواز السفر تاريخاً فعلياً لميلادك؟" فوضعت ما بيدي من علب وتجهيزات لعيد ميلاده، وقلت لها:" هل لديك وقت لتسمعين قصة تاريخ ميلادي؟" فقالت بانبهار :" لدي كل الوقت! إنني متلهفة لمعرفة ظروف اختفاء تاريخ ميلادك هذا ." فسردت لها مأساة مولدي قائلاً :

"على ذمة أمي، وحسب أقوالها، وبعد إستجواب عدد من خالاتي وأعمامي مؤخراً، فهمت مجمل الرواية: ولدتني أمي في موسم حصاد البقول في قرية أم الزينات- حيفا، في جبال الكرمل، وبعد شهر من ولادتي، طلب منها والدي أن تذهب على الأقل لتراقب النساء اللواتي يجمعن العدس والبقول من أرضنا، وكان والدي قد ترك بيتنا، وانضم إلى المدافعين عن حيفا، بعد أن ازداد ضغط الصهاينة عليها من كل اتجاه، وذهبت نساء القرية للحصد، وجمع محاصيل العدس والبقول ونقلها إلى البيادر.

وضعتني أمي بين غمار العدس، وظلّلت فوقي قطعة قماش بيضاء، على شكل مظلة، ودهنتني بزيت الزيتون، خوفاً علي من أشعة الشمس، أو للوقاية من هبوب ريح جافة ، وأخذت تعمل مع نساء القرية، بينما كانت أصوات المدافع وطلقات الأعيرة النارية تسمع من بعيد! وما هي سوى دقائق، حتى صاحت خالتي أم إبراهيم:" يا ويلك يا حمدة، ابنك أكله النمل بين العدس!" هجمت أمي (وهي لم تزل نفساء) باتجاه طفلها، فوجدت وجهي كله مغطى بالنمل الأسود، الذي يبدو أنه قد تجمع على رائحة الزيت، وبدأ بالاستعداد لقرض لحم وجهي الطري في ذلك العمر، وكان صراخي هو الذي أنقذني من تلك الميتة البشعة.

لم يستمر الحصاد، بل ظلت الغمار على أرضها، ذلك لأنهم أعلنوا أن الصهاينة قد وصلوا إلى مشارف أم الزينات، وأن المعارك تشتد في المنطقة. قال عمي أبو يونس:" سقطت أم الزينات بيد المحتلين في الخامس عشر من شهر أيار عام 1948." معنى ذلك أنني ولدت في شهر نيسان ، لكن تحديد اليوم الذي ولدت فيه، عملية صعبة. استغربت زوجتي أمري، فسألت مندهشة:" ولكن أليس لك شهادة ميلاد تثبت اليوم الذي ولدت فيه؟"

فأجبتها، وعيناي في الأرض:" سألت أمي عن هذا الموضوع، فأجابت: عندما ازدادت المعارك ضراوة، وازداد الضغط على أم الزينات، شعر والدك رحمه الله، بأن بلدنا في خطر، فدخل البيت، وأخذ منه كل الأوراق الهامة، مثل سند تسجيل الأرض، وشهادات ميلاد الأولاد وشهادة زواجنا، والنقود التي جمعها طيلة شقاء عمره، وأعطاني إياها، وقال: (ديري بالك على الأولاد يا حمدة)، وتركني وذهب إلى أجزم حيث انتقل المدافعون عن جبال الكرمل بعد أن سقطت حيفا، وتجمعوا في منطقة إجزم، وأما أنا فتحزمت على النقود على بطني، ووضعت الأوراق، والوثائق الثبوتية كلها في كيس ربطته في عنقي، وكان لنا حماران، أحدهما أبيض والآخر أسود، يساعداننا في أعمال الزراعة والمعيشة، جهزتهما بخرجين، ووضعت أخويك الكبيرين في خرج على جانبي الحمار الأبيض، ووضعت أختيك في خرج الحمار الأسود، وربطت الحمارين خلف بعضهما، وركبت الحمار الذي في المقدمة، وحملتك ملفوفاً بالقماط، في حضني، وكانت قافلة المهاجرات تستعد.. وخلال وقت قصير، قادنا شيوخ القرية إلى مرج بن عامر، ومضوا بنا في طريق مرعب! كان مرج بن عامر مليئاً بالمحتلين الذين خيموا في مستعمرات جديدة، وكانوا يطلقون الرصاص علينا ونحن ماضون في طريقنا، طريق الآلام، إلى مدينة جنين، ولم يكن معنا رجل واحد يقاوم نيران اليهود، فكل الرجال معنا شيوخ. وأما الشباب القادرون على القتال مثل أبيك رحمه الله فقد ظلوا هناك.

كانت القافلة المهاجرة معظمها من النساء والأطفال، بعضهن يمشين سيراً على الأقدام وحيدات، أو حاملات لأطفالهن، يتعثرن، أو تسقط واحدة منهن من شدة الإعياء والتعب، لطول المسيرة، وتسقط أخرى برصاص المجندين. لم يكن أهالي أم الزينات وحدهم المهاجرون في ذلك الطريق، بل كانت الدروب مكتظة بالمهاجرين من المنطقة كلها، وكنا نهجم لنلتقط طفلاً إذا سقطت أمه شهيدة وهي تحمل طفلها، أو لم تعد تقدر على حمله، بسبب رهبة الموت المنتشر في ثنايا قافلتنا، وطول الطريق، ووعورتها! واستمرت القافلة المهاجرة حتى وصلنا مشارف جنين، حيث قابلنا الناس هناك، وتلقفونا، ليقدموا لنا الطعام والدواء، وأخذوا يساعدوننا في إيجاد المأوى المؤقت، ريثما نعود إلى قرانا، بعد انتهاء المعارك، حيث أن رجالنا لم يزلوا هناك يقاتلون. تجمعنا في جنين ، وهنا حصلنا على الطعام والمأوى. تفقدت صدري، تحسست هنا وهناك، فكان خالياً من الكيس، تحسست عنقي، فلم يكن حوله أي رباط، سقط الكيس الذي وضعت فيه جميع الأوراق الثبوتية، فقلت لنفسي، إن الأمر سهل، فعندما نعود إلى أم الزينات، سنحصل على نسخة من أصل هذه الشهادات والأوراق، من حيفا. المهم أن أولادي ما يزالون أحياء، وأن نقودي لم تضع! وبعد أيام جاءني خبر استشهاد والدك في معركة إجزم، فتهت في بلاد الغربة بلا زوج، وبين أحضاني خمسة أطفال، لا معيل لهم سوى الله. تسألني عن شهادة ميلادك يا ولدي؟ أولى لك أن تشكر الظروف التي أبقتك حياً حتى هذه الأيام! أنت مستاء لضياع شهادة ميلادك، وأنا ضاع مني وطني وبيتي وزوجي، وارتمى في أحضاني رهط من الأطفال، فلا تسألني بعد الآن عن شهادة ميلادك، لأنها تذكرني بالرعب والخراب والدمار والموت!" لم أستطع أن أحقق أكثر من ذلك مع والدتي حول موضوع تاريخ ميلادي، ولم أعد أذكر عبارة ميلاد، أو عيد ميلاد، حتى لا أضطر لنبش الآلام والمرارة.كانت دموع زوجتي تسح على خديها وهي تقول: " لو علمت تفاصيل هذه القصة، لما سألتك أبداً. فأنا لا أريدك أن تتضايق أكثر." فقلت لها:" ولكن هل تعتقدين أنني أنسى البحث عن تاريخ ميلادي؟ تأكدي أننا حينما نعود،

سيكون الأمر سهلاً، وسنستخرج من حيفا شهادة ميلاد أصلية، وسأعرف يوم ميلادي الحقيقي. وعندها سنحتفل مبتهجين بعيد ميلادي!"

الجنة في بيريّا !

جاءني إلى مشروع البناء ، باحثاً عن عمل، وقال:

"أنا إبراهيم، عامل بلاّط، عندي خبرة ممتازة في تبليط أرضيات البيوت الراقية. أعرض عليك أن أبلط لك أرض بيتك الجميل هذا."

فقلت له متفائلاً :

" هل بيتي جميل فعلاً؟" فأجاب بكل ثقة، وكأنه يبهِّر تسويق عمله:

" حقاً إنه جميل، والذي زاده جمالاً، سقفه القرميدي، تراه من نهاية الشارع، يلفت النظر، ويثير انتباه المارة!" وواصل الرجل حديثه الثرثار:"ولكن قُل لي: هل المختار علي الحارثي، مختار قرية بيريا قضاء صفد، قريبك؟" فوضعت يدي على أذني، وسألته قائلاً :

" ومن أين تعرف مختار بيريا؟ وكيف تعرفت على علاقتي معه؟" فأجاب بطلاقة لسان مسوِّقٍ حداثي:

" قالوا لي إن اسم صاحب هذا البيت، حسن الحارثي. وأنا بدوي من بدو الحوارث، من مرج بن عامر، قلت لعليّ أجد صلة قرابة، أو معرفة معك، تكون مبرراً للتعرف عليك، وربما للعمل لديك، على الأقل ، في تبليط أرض هذا البيت." فقلت له بفخر وارتياح نفسي:

" أنا فعلاً حسن الحارثي، والمختار علي الحارثي يكون والدي." فانفعل البلاّط، وكأنه وجد شيئاً كان قد أضاعه، وقال :

" والدك! سبحان الله، إنك تشبهه تماماً، كأنني أقف الآن أمامه في بيريا. كان والدك شاباً في الأربعين من عمره، في مثل سنك الآن تقريباً، يبني بيتاً في القرية على طريق صفد، أكثر بيت أحببته في حياتي، تحيط به غابة من الأشجار، وارفة الظلال، غير بعيد عن ينابيع الماء الزلال، يرتادها أهل القرية والمارة وحتى رعاة الأغنام. تستطيع أن تقول إنها جنة الله على الأرض. أذكره تماماً وكأنه أمامي الآن ، جئت لوالدك أطلب إليه أن أعمل مساعداً في أعمال البناء، كان عمري يومها حوالي سبع عشرة سنة.. وافق المختار، وعلى الفور قمت بنقل المياه والاسمنت والحجارة للبنائين، وقام البناء، وتم سقفه بالقرميد الأحمر، واستمرت أعمال التشطيبات الإنشائية، حتى سكنه المختار، فذبح الذبائح، ووزع اللحوم على أهالي القرية، وأصبح بيتكم بقعة جمالية فائقة على الطريق كان السياح القادمون من صفد شمالاً إلى جبال كنعان، أو قرية عين الزيتون، يقفون عنده، ويلتقطون صوراً تذكارية، وكانوا يركزون على عبارة منحوتة في الحجر فوق بوابة البيت، تقول:

ألا يا دار لا يدخلك شر ولا يعبث بصاحبك الزمان

فنعم الدار أنت لكل ضيف وفي الظلمات أنت الصولجان بيتان من الشعر لم أزل أذكرهما حتى الآن. وبعد أن انتهى البناء، استمر عملي في بيتكم، وكان خلفه اسطبل طويل، يقف فيه حصان، وإلى جواره بقرة هولندية حلوب وعجول، وأغنام بيضاء وماعز شامية حمراء، ودجاج بلدي ملون.. خيرات كثيرة، لحوم وحليب وألبان وأجبان وزبدة وبيض.. شيء لا يصدق.. عملت سنتين بعد الحرب، فبعد أن انهكنا الانتداب الإنجليزي، دخلت قوات البالماخ المدربة المنظمة، وقاوم أهالي صفد، وقرى بيريا وعين الزيتون وغيرها، وكان المختار يحصل على السلاح من جماعة أديب الشيشكلي، قائد جبهة الإنقاذ في تلك المنطقة، ويوزعه على أهالي بيريا.. صمد الرجال، واندحرت قوات البالماخ عدة مرات، ولكن الذخائر انتهت، وانقطعت الإمدادات، وسقطت القريتان، وتشتت الشمل، وضاعت البلاد!"

أخذت الدموع تسيل من عيني (أبو إبراهيم)، فمسحها بمنديل أخرجه من جيبه، وتمخط، وتابع قوله:

" لم أغادر المنطقة، فنحن بدو كما ذكرت لك، ولنا أغنام سارحة في مرج بن عامر، ولم يكن اليهود يركزون علينا في بداية الأمر، كان صدامهم الفعلي مع أهالي المدن والقرى، وأصحاب الأرض، ليقتلعوهم من أراضيهم. عدت في نهاية عام ثمانية وأربعين، في بداية موسم الشتاء. كانت بيوت القرية مهدمة. كومة حجارة. وقرميد سقف بيتكم منهار، وكذلك كل الجدران الداخلية، إذ لم يبق منها سوى القنطرة فوق البوابة الرئيسية، التي كتب عليها بيتا الشعر، بكيت كثيراً فوق الأطلال، كما أبكي أمامك الآن، وغادرت المكان، وهاجرت مع المهاجرين، إلى مدن أخرى لم يقرر اليهود مهاجمتها بعد. هاجرت لأن المحتلين لم يبقوا مدنيين ولا فلاحين، ولا بدواً رحلاً! لقد صادروا أغنامنا، وقتلوا من قاوم منا! ولكن ماذا تنفع عصا الراعي مع البندقية! سبعة وثلاثون عاماً أخرى، وها أنا أقف الآن أمامك، كأنني الآن أقف أمام بيت أبيك في بيريا. ولكن قل لي: أين هو المختار؟ أما يزال عائشاً؟"

فأجبته وأنا أمام موقف ليس له مثيل في التاريخ:

" تصور يا عمي أنه مايزال يعيش في المخيم، ويرفض أن ينتقل معي إلى هذا البيت! يقول إنه سيبقى في المخيم إلى أن تهدأ الأحوال، وعندها سيعود إلى بيريا، وسيعيد ترميم البيت، وسيعيد تركيب القرميد من جديد، وسيعيد بناء الإسطبل، وسيملؤه بالخيل والليل ، والماشية والدجاج، وأنه سيأكل من خيرات بيته، ويعتقد أن صحته عندها ستعود كما كانت في السابق، شباب على طول.

إنه عجوز في الثمانين من عمره، ولكنه عنيد، يتحدث طوال النهار عن الجنة في بيريا، ويوجه كل سلوكه بهدف العودة إلى هناك. لم أكن أستطيع أن أفهم مبرراً لتصرف أبي هذا، ولكنني الآن فهمته تماماً.

الآن فهمت أن الجنة في بيريا."

شتاء (1985)

أنا أحب سعاد!

في صيف هذا العام ذهبت لزيارة والدتي التي رفضت الهجرة، وأصرت على البقاء في مخيم طولكرم..الدخول إلى فلسطين المحتلة أصعب بكثير من الدخول إلى غرفة نوم سجين خطير على أمن الدولة، ولكنني أتحمل الذل والهوان من أجل عيون والدتي، وتراب الوطن، وأشعر بالعار ، وأنا أرى الصهاينة يعتقلون وطني ويكبلونه بالأصفاد.

وفي مخيم طولكرم ، التقتني والدتي بالأحضان والبكاء ، فعانقتها واطمأنيت على صحتها، وسألتها عن الجيران فقالت:" الجيران بخير، ولا ينغص حياتهم سوى شح الموارد، والفاقة والفقر والبطالة والاضطهاد والاعتقال والاغتيالات ومصادرة الأراضي وإغلاق المدارس والجامعات والتعذيب." انسابت دموعها وهي تتابع قولها: "أنت تعرف ابن جيراننا أحمد، أحمد الصايل! ضربوه على رأسه وعذبوه، حتى فقد عقله، وهو الآن يسير في الشوارع بلا وعي، يكلم نفسه."

وبينما هي تحدثني عنه، مر أحمد الصايل. كنت أعرفه وهو طفل. كان يلعب في الحارة مع اخواني الصغار، وها هو الآن رجل ذو شوارب غليظة، وشعر أشعث، وملابس فضفاضة مهلهلة متسخة، ووجه عابس، مرهق. مر مترنحاً، فضحك في وجهينا ببله، فقالت له أمي:

" هذا ياسين يا أحمد، تعال سلم عليه." فقال على الفور:" أهلاً ياسين، أهلاً وسهلاً! جئت؟ متى وصلت؟" فأجبته محزونا:" اليوم بعد الظهر."

" وكيف حالك ؟ اشتقنا لك. وأين تشتغل؟" فاحتضنته مجيباً:

" اشتغل في بلاد النفط."

" يقولون إن واحداً طلع على وجهه نفط، فأصيب بالعمى، ولم يعد يرى حوله شيئاً.. أصبح يأكل كثيراً ، ويشرب كثيراً ، وينام كثيراً ، ولكنه لا يعرف شيئاً عما حوله." وقهقهه أحمد: "(هه هه هه!) النفط عاطل يا ياسين، ضربوني اليهود، ضربوني على رأسي، حتى أصبح رأسي يوجعني." فسأله حزني: " لماذا ضربوك؟" فأجاب وهو يضحك، ومخاط أصفر يطل من أنفه : لأنني ذهبت إلى يافا. ذهبت لأعيش في البيت الذي هاجر منه أبي وأمي. عشت هناك ثلاثة أشهر، أيام جميلة والله، قضيتها مع سعاد في حي العجمي، ولكنهم أخذوني وضربوني وهم يسألونني: " كيف تدخل يافا دون تصريح؟ هل يافا مفتوحة لأشكالك؟ أنت يجب أن تذهب إلى الشرق، إلى الصحراء العربية." سجنوني ثلاث سنوات، وضربوني على رأسي كثيراً ..حتى جلست في السجن أغني، فقالوا : "أحمد مجنون،أحمد مجنون." وأنا لست مجنوناً، أنا فقط رأسي صار يوجعني من كثرة الضرب. عندما كنت في يافا، لم يكن رأسي يوجعني، وعندما عدت إلى مخيم طولكرم، عاد رأسي يضرب علي. مسح مخاط أنفه بظهر يده، ثم قال :

"كنت أحب سعاد، وبعد أن خرجت من السجن، بحثت عنها فلم أجدها.. تضايقت، مشيت في الشارع، وصلت إلى طريق اللد- الرملة.. سيراً على الأقدام.. شعرت بالبرد، فوضعت إطارات سيارات في منتصف الشارع، وأشعلت النيران فيها، فأحرقتها .. كانت سيارات المحتلين تقفز من داخل الاطارات المشتعلة، مثل قفز الثعالب. وكنا نتفرج عليها، أنا وأصحابي ونضحك (هه هه هه!). وحدثت حوادث سيارات، وعرف اليهود أنهم غرباء في اللد والرملة، لأن الطريق ليست سالكة بين يافا والقدس.. نحن نعيق حركة المرور، فقط

لننغص عليهم حياتهم، لنشعرهم أنهم سرقوا أرضنا وحاولوا تدميرنا..تصور يا ياسين أننا ضربناهم بالحجارة، فصدر أمر من الحاكم العسكري الإسرائيلي باعتقال الحجارة المشتبه فيها، أخذوها وراحوا يحققون معها.. (هه هه هه!) يقولون "إنه مجنون." ، وأنا فقط رأسي يوجعني! المحتلون يخافون من المرأة الحامل، يفكرون أنها تحمل في بطنها قنبلة موقوتة، فيضايقونها، ويفتشونها، ويتنصتون على بطنها، فيسمعون ضربات (تك، تك، تك)، فيقولون:

" إنها فعلاً قنبلة موقوتة، وصوت الموقِّت مسموع!" إنهم مجانين لا يميزون صوت قلب الطفل، من موقِّت القنبلة الموقوتة.. (هه هه هه!). بالأمس صدر أمر من الحاكم العسكري باعتقال كل امرأة حامل، وتفتيشها والتحقيق معها! كيف حالك يا ياسين؟ النفط الأسود يسود الوجه! إطارات السيارات تحترق، وسيارات الإسرائيليين تقفز من داخلها مثل الثعالب. بين اللد والرملة ضيعت سعاد، بحثوا عنها في كل مكان، فلم يجدوها، فاعتقلوني وحدي. عذبوني يا ياسين. قلت لهم:

- أنا أحب سعاد، وسعاد تعيش في حي العجمي في يافا، والبحر في يافا جميل، وأهلي كانوا يعيشون هنا.. أريد أن أعيش في بلدنا. فقالوا:

- كانت بلدكم، والآن هي بلد إسرائيل. اذهب إلى المخيم، أو إلى الصحاري العربية. العرب عندهم صحاري واسعة. لماذا تحسدونا على هذه الصحراء الصغيرة، التي أخذناها، وحولناها إلى جنة صغيرة ؟ فقلت لهم:

- أنتم كذابون.. فلسطين كانت جنة، وأنتم لوثتموها بالقنابل. فضربوني، وطردوني من يافا، وقالوا:

- لن تعود إلى يافا إلا بالقوة، غصباً عن إرادتنا. ضربوني كثيراً. واعتقلوا كل بنت اسمها سعاد في طول البلاد وعرضها، وحققوا معهن، فلم يجدوا حبيبتي."

جلس أحمد على الأرض ، ثم تابع حديثه قائلاً :

"بعد ثلاث سنوات عدت إلى المخيم، نصف بني آدم (هه هه هه)! تصور يا ياسين، أنا الوحيد في بيتنا الذي يقول الحقيقة، ويفضح اليهود، أنطلق في الشوارع، وأصيح بأعلى صوتي: الصهاينة متوحشون، لأنهم أوجعوا لي رأسي، بينما هم يقولون: هذا مجنون، اتركوه، قضى سجنه، وفقد عقله في السجن. ولكن أنا عقلي لم يزل في رأسي، وسأصبح بصحة جيدة، إذا سمحوا لي أن أعيش في يافا.. أرجوك يا ياسين أن تتوسط لي عند الحاكم العسكري، ليسمح لي أن أعيش في يافا مع سعاد. ولكن اسمع، إذا لم يسمحوا لي، فسوف أعود، واحرق إطارات السيارات بين اللد والرملة عند المنعطف، وسأمنعهم من الوصول إلى القدس. سأقطع الطريق عليهم، وسأشعل النيران في وجوههم.. أبلغهم بذلك يا ياسين، والذي يصير يصير! تصور يا ياسين أن الحاكم العسكري أصدر بلاغاً، منع بموجبه بيع البطيخ والشمام، وكل الأشياء المدورة.. قال لأنها مثل القنابل.(هه هه هه !). صادروا كل سكاكين المطابخ، لأن السكاكين تستخدم للمقاومة. قل لي بالله عليك: من هو المجنون يا ياسين، أنا أم هم؟ (هه هه هه!). بخاطرك يا ياسين."

قام أحمد ومشى في الطريق، واستمر يكلم نفسه بصوت عال:

" منعوني أن أعيش مع سعاد في يافا. سعاد. أنا قادم."

دموع أمي تنساب على وجهها وهي تقول:

" كم هو مسكين أحمد هذا. منهم لله!.. كان شاباً مثل الوردة..اعتقلوه بتهمة المقاومة، وعذبوه ففقد عقله. ولكنه كما ترى، ما زال يقاوم."

أمي تبكي، ولكنني كرجل، لا أستطيع البكاء، ذلك لأنني أفكر في صد هذا الاحتلال الذي لا يتوقف !

صيف 1987.

الزيارة !

"يا مقابل الحكام يا أبو محمد!" " يا مقابل الحكام يا أبو محمد!" هكذا كانوا يتناقلون الخبر!...سرى خبر زيارة الوالي التركي إلى بيت (أبو محمد) مختار قرية جولس، سريان النار في الهشيم! وأصبح حديث أهل القرية. كلٌّ منهم كان ينقله بطريقته الخاصة، حتى أتباع المختار، الذين طلب منهم تبليغ أهل القرية، كانوا يروون البلاغ، كل بطريقة مختلفة.

وفي ديوانه، جلس المختار يحسب للزيارة ألف حساب، قائلاً لنفسه :

" ولكن كيف حصل هذا، وهل يعقل أن الوالي التركي بعظمته، وجبروت قدره، يزور قرية جولس، الفقيرة الصغيرة، وأن يرسل لي برقية خاصة، يعلمني فيها بزيارته؟ طبعاً معقول! البرقية، وتسلمتها رسمياً من البريد، واضحة وضوح الشمس. أكيد أن الوالي التركي سيزورني ليهنئني على مواقفي في خدمة الأتراك. وتنفيذ أوامرهم، وليدعم موقفي أمام أهل بلدي، وليشعر أهالي جولس الكرام، بأن (أبو محمد) ليس وحده في الساحة، وها هو الوالي ذات نفسه، يزوره، ويتباحث معه في شؤون الرعية!" تشتت تفكير أبو محمد بين عظمة الزيارة ورعبها ، وهو يحدث نفسه:" والله وكبرت قيمتك يا أبو محمد، وصرت مشهوراً لدى الحكام الأتراك! ولكن لماذا لا أكون مشهوراً لديهم، تماماً كما أنا مشهور لدى أهالي جولس؟ فالأمن مستتب والحمد لله. ولا يستطيع نفر من القرية أن يحرك ساكناً ضد السلطات، فأنا أقدم للحاكم التركي سنوياً، ما لايقل عن عشرين إرهابياً ومعارضاً وثائراً، وأقدم للجيش الانكشاري التركي ما لا يقل عن عشرين شاباً من القرية. والضرائب يجمعها مأمور الضريبة للأتراك بنفسه! آه! هذه قضية الضرائب هي التي فجرت الموقف!" وضع أبو محمد يده على خده، وصفن مفكراً بعواقب الأمور! " نسيت أن مأمور الضريبة عاد قبل شهرين إلى غزة، وهو مكسور الخاطر. ذلك لأن نفراً من الخارجين على القانون، اجتمعوا عليه، وضايقوه بالفعل. كاد أن يموت المسكين من شدة الضرب، الحق كل الحق علي أنا! أنا الذي لم أرسل معه حارساً مسلحاً! اعتقدت أن الأمن مستتب، فأرسلته وحده ليجمع الضرائب، فأمسكوا به أولاد الحرام، وضربوه ضرباً شديداً! لم أنم تلك الليلة. خفت على نفسي من غضب الوالي، فالولاة ملاعين؛ إذا غضبوا من أحد، أهلكوه!" سحب نفساً من نرجيلته التي انتبه لكونها مطفأة، فرمى خرطومها بعيداً ، ثم قال: "في الحقيقة أنا خائف! نعم خائف! ابتدأت أخاف من زيارة الوالي! قد تكون زيارته لهذا السبب. قد يكون يفكر بالانتقام مني شخصياً ، لأنني لم أذبح لمأمور الضريبة ذبائحاً! ولكن الذبائح قضية فرعية جداً، ولا تستدعي زيارة رجل عظيم وجبار مثل الوالي، إلى مختار قرية جولس! ولكن المأمور، أي نعم اعتُدي عليه بالضرب، وسرقت الأموال التي جمعها من أهالي القرية. معنى ذلك أنه عاد إلى غزة دون أموال!" تناول غليونه البلوطي من فوق المنضدة الخشبية ، وأخذ يحشوه بلفائف الدخان الأشقر وهو يقول:"أنا الذي لم أستطع أن أكشف الثوار الذين كمنوا للمأمور، وأوقعوه في الفخ! حفنة أشرار يسميهم أهالي القرية ثواراً، يعتدون على رجل ضعيف غريب عن القرية، ويسرقون أموالاً كان قد جمعها بالقانون والنظام. ولكنني لم أقصر في البحث والتحري! وما دمت لم أجد الفعلة، فأنا مقصر بالفعل! وليس هذا فقط، فإن مجرد عدم إرسال حارس مسلح مع المأمور، يعني تكاسلاً مني في الخدمة! هذا شيء رهيب! رهيب

فعلاً! كارثة ستقع فوق رأسي! إنني خائف! ارتجف خوفاً! ولكن لو كان الوالي مستاءً مني لهذه الدرجة، لما فكر بزيارتي، بل لاكتفى بطردي من الخدمة! لا أعتقد أنه مستاء مني، لأنه لن يجد مختاراً مثلي يحقق له الأمن والنظام اللذين أوفرهما للوطن! إنني لا أزال شديداً، وقبضتي حديدية! لقد اختلط الحابل بالنابل في رأسي!"

سمعت أم عمر بالخبر، فقررت الذهاب إلى ديوان المختار ترجوه أن يساعدها في معرفة أي خبر عن ابنها عمر، الذي جندوه عنوة في الجيش الانكشاري قبل سنتين، واختفت أخباره منذ ذلك التاريخ. إنه الابن الوحيد الذي بقي لها، بعد أن انتشر مرض الطاعون، وأجهز على ثلاثة أطفال لها مع والدهم، ولم يبق في البيت سوى عمر وأمه، حتى إذا كبر عمر، وشب في بيت أمه، سجله المختار مع الدفعة المطلوبة للتجنيد الانكشاري، وذهب عمر ولم يعد له خبر.

وسمعت أم يونس بخبر زيارة الوالي، ففكرت في الذهاب إلى ديوان المختار (أبو محمد)، لترجوه أن يساعدها لمعرفة السجن الذي أودع فيه زوجها أبو يونس قبل سنة، دون تهمة محددة توجه إليه. مجرد أنه قال لمأمور الضريبة:" نحن لا نملك حتى قوت يومنا! فتش بيتنا يا حضرة المأمور." فخرج المأمور غاضباً، وأبلغ المختار، وبعد ثلاثة أيام، أرسل المختار الغفير رسلان، فاقتاده إلى الديوان، وأرسلوه إلى غزة، وهناك اختفى خبره.

وفي غرفة مغلقة عليهم، قرر الإسكافي عبد الله، وصديقه حسان، والثائر أبو منذر أن يضعوا خطة لاغتيال الوالي لدى عودته من زيارة المختار (أبو محمد). وفي يوم الزيارة، كان أبو محمد يعيش أقصى درجات التوتر النفسي داخل ديوانه، في انتظار الوالي، وكان المنادي ينادي الناس في القرية للاصطفاف على جانبي الطريق المؤدي إلى ديوان المختار، لاستقبال الوالي، وبالفعل تجمع الناس، معظم أهل القرية وقفوا أمام ديوان المختار، بينما الحارس رسلان يحمل بندقيته، ويصيح بأهالي القرية، مطالباً إياهم أن يصطفوا جيداً، وأن يخلو الطريق لدخول الوالي...وما هي إلا لحظات حتى ظهر الوالي راكباً حصانه الأسود، ومعه عدد من المرافقين، يتحركون بخيولهم البنية اللون أمام وخلف حصان الوالي، حركات حراسة وبهرجة- وساد هرج ومرج بين أهالي القرية المصطفين على جانبي الطريق. كل منهم يقول على حده:" يا مقابل الحكام يا أبو محمد!.. يا مقابل الحكام يا أبو محمد!" واستمر ترديد هذه العبارة الساخرة، حتى وصل الوالي إلى فناء الديوان. وكان المختار أبو محمد قد خطا مسرعاً لاستقبال الوالي. وأمام الفناء، ومن على حصانه، قال له الوالي: " أنت أبو محمد؟!" فأجاب المختار مخفضاً رأسه:" نعم سيدي." فأضاف الوالي قوله:" كنت في طريقي إلى غزة، فقلت أمر بقرية جولس، فقط لأشاهدك يا مختار!" فقال محني الرأس :" أنت شرفتنا يا سيدي." فصرخ الوالي في وجه المختار قائلاً :" أرسل لك مأمور الضرائب، فيعود من قريتكم مطروداً مضروباً، مسروقة منه أموال الضريبة! (أخ تفو على وجهك) سأعلمك كيف تتجاهل رسولي وسوف ترى.!".. لم ينزل الوالي، بل أدار حصانه الأسود، وعاد هو وجماعته دون توقف، خارجين من القرية باتجاه غزة..وهنا تعالت أصوات أهالي القرية، تردد العبارة الساخرة نفسها:" يا مقابل الحكام يا أبو محمد!.." يا مقابل الحكام يا أبو محمد!" وسأله أحد المصطفين أمام فناء البيت قائلاً :" ها ! إن شاء الله قابلت الحكام يا ابو محمد ؟" فأجابه أبو محمد، الذي سار بين صفي أهالي القرية، كأنه يتبع خطى الوالي، الخارج من القرية، قائلاً: "الله أعلم قابلنا ولاّ ما قابلنا!"

وفي المدى البعيد سمعت أصوات طلقات نارية، أثارت في أهالي القرية مشاعر ممزوجة من الاندهاش والرعب والزغاريد.

موسم الحصاد .

التهمت النيران بيت جارنا العبد الحسين، وكنت أنا شاهد عيان، أتفرج عليها. كان ذلك في قريتنا أم الزينات في رأس جبل الكرمل، وكان جارنا في تلك اللحظات نائماً بعد الغداء، حيث أنه ينام النهار ويقوم الليل، مع جيش أبو درة. وعبد الرحمن الحسن مشهور باقتناص الإنجليز، عسكر الانتداب البريطاني. قالوا إنه كان ينقل السلاح إلى ثوار حيفا بالسلة.. يضع على وجهها بيضاً وخضاراً، ويتظاهر أنه يبيعها، ولكنه كان يقصد توصيلها إلى ذويها.

أخذني معه في أحد الأيام إلى حيفا. كنا نسير في أحد الشوارع، أنا أتفرج على العمارات الجميلة، وعلى المحلات التجارية، التي ليس في قريتنا أم الزينات محل واحد مثلها.. شاهدت جندياً إنجليزياً يمر بدراجته، فتوقف بها على بعد أمتار، ثم استدار وعاد إلينا. خفت أنا، وقال عبد الرحمن:

"رحنا في داهية.!" توقف الإنجليزي وسال عبد الرحمن:

" أنت عبد الحسن؟" وعلى الفور، أخرج العبد الحسن من وسطه مسدساً، فأشهره في وجه الإنجليزي، وأجابه بطلقتين. وقع الإنجليزي هو ودراجته على الأرض، والدماء تنزف منه، وقال لي عبد الرحمن: " اهرب معي.. تحرك! " ارتبكت ولم أعرف كيف أتصرف، حيث أنني لا أفهم مثل هذه الأمور، ولم يخطر في بالي، أو أتصور، أن أرى في حياتي مشهد قتل من ثائر لمستعمر!

شدني العبد الحسن، وكأنه يجرّني جراً ، حيث أن ساقي لم تساعداني على الهرب.. ودخلنا أول زقاق يتفرع من الشارع، بعده دخلنا زقاقاً جهة اليمين، ثم إلى الشمال، وبعده نزلنا في طريق ترابي جهة مزابل وواد، ودخلنا بيتاً، لم أعرف أين أنا، ولا أين دخلنا، فأنا مجرور بكل معنى الكلمة في هذه الأحداث. وحتى خروجي مع عبد الحسن من بيتنا، من قرية أم الزينات إلى حيفا، كان دون سابق إنذار أو تخطيط، أو دراية مني. ساعتها قال لي:

" لنذهب نتنزه في حيفا". فقلتُ "يا الله". وذهبنا. ولكن أين أصبحنا وفي بين من؟ لم أعرف!

سألته أين نحن يا عبد فقال:" اسكت." فسكتّ.

طلب من صاحب البيت ملابس، فأخرج صاحب البيت من غرفة مجاورة ملابس نسائية سوداء، وملاية تغطي الرأس، سمعت صفارات الإنذار، فالشارع الذي يرقد عليه الإنجليزي المقتول لايزال قريباً منا. دوت أصوات سماعات تقول:

" ممنوع التجول، وكل من يتجول تطلق عليه النار.". أعصابي كانت تذوب في داخل سروالي. قلت لنفسي:

"كيف حصل كل هذا؟ وما علاقتي بكل هذه الأمور؟ صحيح أنني أكره الإنجليز المستعمرين، ولكنني لا أجرؤ على قتل أرنب، فكيف يقتل عبد الرحمن جندياً إنجليزياً أمام عيني، وبلا سابق إنذار أو ترصد؟!"

قال لي عبد الرحمن:

" البس." قلت:

" ماذا؟" قال:

" البس ملابس النساء، وضع الملاية فوق رأسك وإلا سيتعرفون علينا.." قلت في نفسي:

" آخر الزمان نلبس ملابس الحريم!.. من يغادر قريته ويذهب ليتسكع في شوارع حيفا، يستحق أن يتساوى بالحريم.. هذه مهانة لم أتوقع أن أجابهها في حياتي." قلت لعبد الرحمن :

"البس أنت أولاً." ففعل، فإذا به من الظاهر امرأة مغطاة بثوب أسود، وعلى رأسها ملاية سوداء. ذكرني ذلك المشهد بأفلام طاقية الإخفاء، التي كنا نحضرها في السينما في حيفا. كنت أضحك من شدة الخوف! قال لي: "استعجل!"

لبست الثوب والملاية. وعادت السماعات تصرخ من جديد:

"ضربنا طوقاً على هذه الحارة. المطلوب من الجميع الخروج إلى الساحة العامة، نساء ورجالاً، سنفتش الحارة بأكملها." قال عبد الرحمن:

" اخرج." قلت : "إلى أين؟ " قال: " إلى الساحة العامة." قلت:

"سيقتلوننا" فنهرني قائلاً بصوته الخشن : " اصمت، وإلا ستفضحنا! سنخرج من هذه الأزمة، كخروج الشعرة من العجين."

خرجنا متسترين بملابس النساء. وكان في الأزقة أعداد من النساء والرجال يتظلمون! وفي الساحة العامة كانت تقف سيارة عسكرية، وعدد كبير من جنود الإنجليز، يطوقون المنطقة بخيولهم، وثلاثة جنود وضابط يتحركون في الساحة، يفرزون الرجال إلى جانب، والنساء إلى جانب آخر. قالوا : " سيفتش الإنجليز البيوت بيتاً بيتاً."

وبعد أن تفحصوا وجوه الرجال، اعتقلوا ثلاثة يشتبه بهم. وكان الثلاثة يقاومون دفعهم باتجاه السيارة العسكرية، وهم يتصايحون بأنهم مظلومون. وبعد ست ساعات، أعادوا الحريم إلى بيوتهن، فعدنا إلى ذلك البيت الذي تسلمنا منه ملابس النساء. ونمنا في غرفة الجلوس (ديوان البيت). وعند الصباح عاد صاحب البيت وقال لعبد الرحمن ساخراً:

" يا محترم، أنت تنام في البيت كالحريم، وأنا أنام في الساحة العامة تحت أرجل خيل الإنجليز، من اجل عيونك." ودون أن يتبسم، أجابه عبد الرحمن قائلاً: " بل تنام من أجل عيون حيفا."

بعد فك الحصار، عدنا إلى البلد، سيراً على الأقدام، بين أحراش جبال الكرمل. آه ما أشهى رائحة السنديان. ولكن الخوف كان ينسيني جمال غابة الكرمل. الرعب أتلف أعصابي. أوصلني العبد الحسن إلى طرف قريتنا، وعاد وحده إلى دالية الكرمل أو طيرة الكرمل.. لا أذكر ما قاله، ولكن كل ما أعرفه أنني نمت في فراشي أسبوعاً، وأنا لا أقوى على الحركة. كنت أتظاهر بأنني مريض مرضاً عابراً، ولم أبلغ أحداً من أهلي بما حصل لي.

هذه القصة ذكرتها كلها ، لأعرفك على جارنا عبد الرحمن الحسن، الذي لا يزال نائماً في بيته، والنيران تلتهم الحطب المحيط ببيته، وتدخل من الأبواب والشبابيك، فتخنقه وهو نائم، وعبد ينام فلا يعرف الحياة، يستغرق في النوم، وكأنه شهيد مسجى. وعند السهر يسهر أسبوعاً متواصلاً، فلا يعرف النوم. صحت بأعلى صوتي: "الله أكبر بيت عبد الحسن يحترق وعبدٍ يموت!". لم يكن في الحارة أحد. فالناس كلهم يحصدون قمحهم رجالاً ونساءً. إنه موسم الحصاد الحزين، الدنيا حر والحطب جاف وعبد نائم! وأنا الوحيد الذي أشاهد النيران، هجمت لإخماد الحريق. جرفت دلواً من التراب ورميته على الحطب المشتعل. ومددت يدي لأجرف دلواً آخر، فإذ برجل ملثم يتقدم مسرعاً نحوي، ويمسك الدلو من يدي ويقول: "مالك وللنار! ابتعد كي لا تلتهمك!"

نظرت إلى عيني الرجل. كان غريباً عن القرية. فأنا أعرف عيون أهل بلدي. قلت بغباء حقيقي: " ساعدني لإطفاء الحريق!" فقال الملثم:

" قلت لك ابتعد، فالنار إذا أمسكت بطرف قمبازك، فستأكلك، ولن يرحمك أحد! ابتعد!" فقلت مندهشاً: " يا رجل، النار، إذا ازداد لهيبها فسيموت عبد الرحمن!" فقال الغريب :

" إنه سيموت، إن آجلاً أو عاجلاً. وأنت لماذا ترمي نفسك أمام النار؟ قلت لك ابتعد إني آمرك."

أخذ الدلو من يدي ، ورماه بعيداً، ثم أمسك ذراعي، وثناها إلى الخلف، لدرجة جعلتني أجأر صائحاً! كسر ذراعي فعلاً! قعدت على الأرض! ركلني ببسطاره بضربة قوية على ظهري، جعلتني أتمرغ على الأرض، مثل كوز الصبر، الذي يمرغونه على عشب الأرض الجاف ، بعد قطافه.

وبينما أنا أتلوى من شدة الألم، جاء ملثم آخر وقال:

" أترى كيف أنك إنسان منضبط. الآن تستحق منا هذه الهدية. والنبي قبل الهدية. إنها فقط ألف جنيه فلسطيني. نحن نعرف أنك بحاجة لبناء بيت. ألف جنيه تبني لك قصراً منيعاً في جبل الكرمل، الذي يخلو حتى الآن من القصور. جبل الكرمل كله مقابر أناس يقاتلون الإنجليز والمهاجرين اليهود. ألا ترى معي أن جميع الناس الذين يقاتلون الإنجليز، والمهاجرين اليهود، قد انتهوا! فلماذا تحمل السلم بالعرض! أنت رجل كبير، ولك أطفال، وهم بحاجة ماسة إليك، ويريدونك أن تعيش، لتراهم وهم شباب! خذ هذه النقود، وسامح ذلك الرجل الذي ضربك، فإنه لو كان قاسياً معك لقتلك، ولكنه يحبك، ولهذا أبقى على حياتك. وها نحن نعطيك الذهب والفضة لتنعم بهما. عش يا رجل! الحياة حلوة! لا داعي لأن تكون ضحية بلا مبرر! أنت يجب أن تعيش، وها نحن نمنحك الفرصة الأخيرة، فحاذر أن تلطم المخرز! فالملثم سيبقى لك بالمرصاد، وأنا سأبقى معك، لأدفع لك مزيداً من الجنيهات، إذا لزمك الأمر لفرش بيتك الجديد."

لا أخفي عليك نذالتي.. فلقد تمعنت الأمر جيداً، وأنا لست مناضلاً بالفعل، بل أريد أن أعيش حياتي، أخذت الألف جنيه، حيث أن ألف جنيه عام ستة وثلاثين، تعني مبلغاً لم تحلم به قريتنا أم الزينات كلها مجتمعة، وبدأت أفكر ببناء بيتي الجميل.

لا أريد أن أوضح لك كيف استشهد عبد الرحمن الحسن، وكيف جاء بعد ذلك أهل قريتنا وأخرجوا جثته فحمة هامدة من داخل بيته. ذلك لأنني شيطان خرس.

ولكن في ذلك اليوم التحق بجيش (أبو دره) ثلاثة شباب من قريتنا، ليفدوا بدمهم روح الشهيد.

السعادة الدائمة!

يبدو أن شمس صباح الجمعة قد بزغت. بدأت أصحو من النوم. الضوء المبهر ينبعث من شباك غرفة نومي. العصافير تزقزق على الأشجار المجاورة. أنا أحب العصافير والأشجار الخضراء الوارفة الظلال. أتنفس بحرية. أنني بصحة جيدة. الصباح جميل.

وبسرعة، وقبل أن أتحرك من فراشي، تسلل إلى ذهني المحتال الكبير عبد الخالق. وكيف استطاع أن يحرمني من أجور عملي. ستة أشهر كاملة وأنا أصنع له المنجور الخشبي في بيته الحجري الجميل فوق الرابية الغربية من المدينة. دفع لي في البداية دفعة على الحساب، وقال الرجل الذي عرفني عليه:

"الحاج عبد الخالق محسن كبير، ويصلي الفروض الخمسة، ويصوم شعبان ورجب ورمضان، وإن الله سبحانه وتعالى أنعم عليه وأعطاه مالاً لا يحصى!" صدقت ما قاله ، وقبضت الدفعة الأولى من الحساب ، واشتغلت له المنجور. وبعد شهرين من العمل، طلبت دفعة ثانية ، فقالوا لي:

"إنه مسافر. تابع عملك، وبعد العودة سيدفع لك كل ما تطلبه. الرجل محسن كبير، و(الله منعم ومتفضل عليه!)"

تابعت عملي. وعاد الحاج من السفر، ولكنه تظاهر بالانشغال، واستمريت بالعمل حتى نهايته، خجلاً من المحسن الكبير. وفي النهاية لم يدفع مستحقات العمل. واستمرت مطالبتي له، ومن ثم معاركتي معه سنة كاملة، دفع لي بعدها تكاليف الخشب، ولم يدفع لي قرشاً واحداً من أجوري خلال ستة أشهر، ولم يكن معي دليل خطي ضده، ولم يكن لي أصدقاء أو معارف من عليه القوم، يقفون إلى جانبي في هذه المحنة، فضاعت كل حقوقي.

حاولت طرد هذه الأفكار المؤلمة، ولكن مشكلة الإنسان أن تفكيره لا يتوقف! مرت بخاطري قضية أرضي. نصف دونم اشتريته بالتقسيط بعيداً عن المدينة منذ عشر سنوات، قلت أنني سأبني عليه بيتاً في المستقبل، لتأمين مأوى لي ولأولادي، بدل أن أبقى أسكن بالإيجار، وإذا حدث لي حادث، فأين يعيش أطفالي؟

اشتريت الأرض بالتقسيط، ودفعت أقساطها مستحلبة من عملي طوال السنوات العشر الماضية، وفي هذا العام، ذهبت مع زوجتي وأطفالي الثمانية لزيارة الأرض، فإذا بالأرض التي كانت في تلك الأيام جرداء خالية من أي شيء، أصبحت محاطة بالعمران من ثلاث جهات، والشارع معبد من الجهة الرابعة على خير ما يرام.. لم يبق أمامي سوى أن أبني بيتي.

طلبت قرضاً من البنك ، وعملت رخصة بناء، وجاء المساح ليحدد حدود الأرض والبيت، فإذا به يقول:

"الأرض لا تسمح بالبناء، لأن جارك قد ضم إلى أرضه شريحة منها." دخلت مع جاري في متاهات، استمرت سنة، بين شد وجذب، وجاري يطلب مني أن أسامحه، ويقول:

"أيهون عليك أن تبني بيتك وتهدم سور بيتي، سأدفع لك ثمن الشريحة التي أخذتها منك بالخطأ" وأنا أقول له :

"إن القطعة المتبقية غير قابلة للبناء، حسب قول المساح والمهندس." لم يحصل أي تطور في القضية.. لجأت إلى المحكمة.. ولكنهم قالوا: "المحكمة لن تحصل لك شيئاً. فالمحامي يقف مقابله محام آخر، والجلسات تطول وتطول، وبعد سنوات لا تعرف عددها، يخلق الله ما لا تعلمون."

الوقت لم يزل صباحاً، والشمس تشرق، وأنا مالي وما لمشاكل النصب والأراضي فأرضي وأرض أجدادي في عكا مئات الدونمات يقيم عليها الغزاة الصهاينة، المحتلون مستعمرة، يقطفون منها العنب وأزهار الجلاديولا، وأنا أقاتل هنا خلف لقمة العيش. مجرد العيش!

قمت من نومي واتجهت إلى دورة المياه.. كانت والدتي المريضة في الغرفة المجاورة، تئن من أمراض الضغط والشيخوخة. وأنا أحب والدتي حباً لا يوصف، فهي بالإضافة إلى كونها الأم الحنون، كانت الواحة الرطبة الظليلة، التي تحمينا من غضب الأب، فلقد تحول أبي بعد هجرتنا من عكا إلى شخص آخر، كان أبي في عكا مشهوراً بقوته وابتسامته الدائمة ونكتته الظريفة، التي أحياناً كانت تصل إلى أن تكون نكتة فاضحة، يداعبنا ويلاعبنا، فنكاد نغشى من الضحك، ونركب على كتفه، ويدور بنا الدار ونحن نلعب ونتضاحك.. ولا يعود من العمل أو من الخارج إلا ومعه الهدايا والحلويات، وكان يأخذنا لزيارة أخوالنا في يافا، فنمر على بيارات البرتقال ونشم رائحة أزهارها الزكية من على بعد، ونزور معه أصحابه في حيفا، وكان له في الناصرة صديقة مسيحية، كان يقول إنها أخته، ويأخذ والدتي لزيارتها ويحمل لها الهدايا، ويعود من عندها بالهدايا، وكان يذهب مع أمي لزيارة المسجد الأقصى في القدس ، ويعود من هناك محملاً بالهدايا.. ونجتمع نحن الأطفال حوله، فيحكي لنا حكايات سمعها هناك، بعضها يقول :

" القدس هي مركز الدنيا، وإن الدنيا على شكل صينية مسطحة، والقدس في منتصفها. وعندما تقوم القيامة، فإن الناس يصحون من أطراف الدنيا حيث تشتعل النار، وتكون الجنة في منطقة القدس وما حولها، والناس يركضون من أطراف الدنيا، هرباً من النار، باتجاه الجنة في القدس.. فهنيئاً لمن عاش ومات في القدس، لأنه لن يركض هرباً من النار، بل سيعيش في الآخرة مباشرة في الجنة." وحكايا كثيرة أذكرها، كان والدي يحكيها لنا، ويعلمنا ويسلينا. كنا نعيش سعادة غامرة، نضحك ونلعب ونحس بالسعادة الدائمة.

تفجرت الهجرة ، فتحول والدي إلى رجل آخر، رجل غاضب، يضرب أفراد أسرته لسبب أو لغير سبب، حتى توفي وهو في الستين من العمر. توفي مقهوراً من الغزاة المحتلين، وتحولت حياتنا منذ الهجرة إلى نكد دائم. وكانت المرارة العلقم يوم وفاته، ومن بعده مارسنا الحياة كما كانت عند وفاته. وها هي أمي الآن تئن، وأنا أرسلها كل يوم إلى طبيب وبلا فائدة.

ما هذه الحياة؟! دخلت دورة المياه، وأغلقت الباب خلفي، وجلست....

صيف 1986.